الفصل الرابع

الهجرة والاستيطان

عادةً ما يتم النظر إلى تعداد أعضاء الجماعات اليهودية حسب توزيعهم الجغرافى «فى جميع أنحاء العالم». لكن إذا نظرنا إلى توزيعهم من منظور تاريخى حضارى فستظهر صورة مختلفة تمامًا. ولننظر الآن إلى أكبر تسع جماعات يهودية فى العالم (حسب إحصاءات أوائل التسعينيات، ورغم أن الأعداد قد تغيَّرت بعد ذلك إلا أنها لم تتغيَّر بشكل جوهرى، كما أن النمط العام لم يتغيَّر).

الدولة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٥١٥,٠٠٠	٤٣,١٪
إسرائيل	٣,٧١٧,٠٠٠	٢٩,٠٪
الاتحاد السوفيتى (سابقاً)	١,٣٧٠,٠٠٠	١٠,٧٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١٪
بريطانيا العظمى	٣٢٠,٠٠٠	٢,٥٪
كندا	٣١٠,٠٠٠	٢,٤٪
الأرجنتين	٢١٨,٠٠٠	١,٧٪
جنوب أفريقيا	١١٤,٠٠٠	٠,٩٪
البرازيل	١٠٠,٠٠٠	٠,٨٪

نلاحظ فى هذا الجدول أن ٩٥,١٪ من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز رئيسية، بما فى ذلك الدولة الصهيونية، وأن ٨٢,٤٪ منهم يعيشون فى ثلاث دول فقط. ونلاحظ أيضًا أن البلاد التى تضم جماعات يهودية تنتمى إلى ما يمكن تسميته التشكيل العرقى الأبيض. ففى الأرجنتين، حيث أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية، توجد أيضًا أعلى نسبة من اليهود. أما فى البرازيل فتكاد تكون الاستثناء الوحيد من القاعدة، ومع هذا فإننا نجد أن نسبة السكان من أصل أبيض عالية فى المدن، حيث يتركز اليهود. ولا يوجد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق إلا بنسبة ضئيلة فى الجمهوريات الآسيوية؛ إذ إنهم يتركزون أساسًا فى روسيا وأوكرانيا.

ويمكن تقسيم البلاد التى تعيش الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية فى كنفها إلى قسمين أساسيين لا ثالث لهما: ٢٢٪ فى أوربا والاتحاد السوفيتى سابقًا، أى داخل التشكيل الحضارى الغربى، و ٧٧٪ داخل التشكيل الاستيطانى الغربى (٤٣,١٪ فى الولايات المتحدة، و ٥,٨٪ فى دول استيطانية أخرى مثل كندا والأرجنتين وجنوب إفريقيا والبرازيل، و ٢٩٪ فى إسرائيل).

الجماعة الوظيفية

لتفسير هذه الظاهرة (أى وجود غالبية أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضارى والاستيطانى الغربى) يمكننا استخدام مفهوم

الجماعة الوظيفية (أو جماعة المتعاقدين الهامشيين الغرباء)، وهم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات التقليدية من خارج المجتمع (وأحيانًا تجندهم من داخله). لتوكل إليهم وظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع ذاته القيام بها، إما لأنها وظائف مشينة (جمع النفايات) وإما لأنها متميزة وتتطلب خبرة معينة غير متوفرة عند أعضاء المجتمع المضيف (الطب – الترجمة)، وإما لأنها تتطلب معرفة بأدوات خاصة، أو امتلاك رأس مال، أو المقدرة على ارتياد مناطق نشاط جديدة (صناعات جديدة – تجارة).

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأنهم مجرد أداة في يد الحاكم، وعلاقتهم به ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد، وهو يقوم بعزلهم حتى يظلوا منبوذين من المجتمع ومهددين من جماهيره ليبقوا أداة طيعة في يده. وأعضاء الجماعة الوظيفية لا يدينون بالولاء لأحد (فهم يخافون أعداءهم ويدخلون في علاقة تعاقدية مع أصدقائهم أو أولياء نعمتهم)، لكنهم يحتفظون بعلاقة ولاء قوية لجماعتهم الوظيفية أو لوطنهم الأصلي، ويتسمون بالحركية الفائقة بسبب عدم ارتباطهم بأحد. ومن أهم الجماعات الوظيفية: الجماعات الوظيفية المالية (المرابون والتجار)، والجماعات الوظيفية القتالية (المماليك والساموراي)، والجماعات الوظيفية الاستيطانية (الصينيون في ماليزيا والهنود والبيض في جنوب إفريقيا). ويمكن للجماعة الوظيفية الواحدة أن تضطلع بوظيفتين أو ثلاث وظائف في وقت واحد: مالية واستيطانية وقتالية (اليهود في الدول الهيلينية في

مصر، حيث كانوا يوطنون كجماعة استيطانية تقوم بجباية الأموال وحماية الثغور لمصلحة السلطة الهيلينية الحاكمة).

ولا يمكن أن نفهم حركة الجماعات اليهودية فى العصر الحديث، وسر تركزهم فى بُقع معينة دون غيرها وفى تشكيل حضارى دون غيره، إلا من خلال مفهوم الجماعة الوظيفية هذا. إذ يبدو أنه منذ بداية التاريخ، اضطلع عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصًا فى العالم الغربى) بدور الجماعة الوظيفية، فكانوا جماعة استيطانية قتالية أواستيطانية مالية. ولعل هذا يعود إلى ضعف الدولة العبرانية وتخلفها التكنولوجى وإلى ضعف موارد فلسطين بصورة عامة، وصغر حجمها، الأمر الذى جعلها قاصرة عن استيعاب المصادر البشرية. ولذا، كان لابد من تصديرها والتخلص منها لزيادة موارد الدولة (باعتبار أن المادة البشرية سلعة تُصدَّر) وللقضاء على مصادر القلق الاجتماعى. وقد كانت أول دياسبورا عبرانية هى الحامية العبرانية فى جزيرة إلفنتاين قرب أسوان (فى أوائل القرن السادس ق. م.)، حين قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية بتوطين بعض الجنود العبرانيين فى هذه الجزيرة لحماية حدود مصر الجنوبية. وكان الهدف من التهجير الآشورى – البابلى، فى وجه من وجوهه، الاستفادة من الجماعات الموالية لها فى أرجاء الإمبراطورية، وكان من بينها بعض الجماعات العبرانية. وقد حولت حامية إلفنتاين ولاءها إلى السلطة الفارسية بعد غزوها مصر. وقد

تعمق هذا النمط تمامًا مع الدول الهيلينية (السلوقية فى سوريا والبطليمية فى مصر)، ثم وصل إلى ذروته فى القرن السادس عشر فى بولندا/ أوكرانيا، حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جماعة استيطانية وتجارية وقتالية فى إطار الإقطاع الاستيطانى البولندى فى أوكرانيا، فكان الوكلاء اليهود يستأجرون عوائد ضياع النبلاء البولنديين (الشلاختا) فى أوكرانيا ويديرونها لحساب هؤلاء النبلاء. وقد شيَّد النبلاء لهم ولأسرهم مدنًا صغيرة تسمى «الشتتل»، يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ليتفرغوا لعملية استغلال الأقنان الأوكرانيين واعتصار فائض القيمة منهم. وكان على رجال الجماعة اليهودية الاستيطانية أن يتدربوا على حمل السلاح، بل كانوا أيضًا يتعبدون فى معابد تأخذ شكل القلاع المسلحة وفى صراع الدولة البولندية الغازية مع الفلاحين الأوكرانيين، كان اليهود هم علامة الهيمنة البولندية. ولذا، كان أحد المطالب الرئيسية للحركة الشعبية الوكرانية عدم السماح لليهود بالاستيطان فى أوكرانيا (تمامًا مثلما كانت حركة المقاومة الفلسطينية تطلب وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)، بينما كانت الدولة البولندية الغازية تصر على ضرورة الاعتراف بحق اليهود فى الاستيطان (مثل إصرار العالم الغربى على فتح أبواب فلسطين المحتلة للهجرة اليهودية) ويجب أن نتذكر أن يهود بولندا/ أوكرانيا كانوا يشكلون أكبر جماعة يهودية فى العالم فى القرن السابع عشر، وأنهم أخذوا يزدادون عددًا، إلى أن أصبح معظم يهود العالم من نسلهم. وهذا يعنى أن الاستيطان جزء مهم للغاية من التجربة

التاريخية للجماعات اليهودية فى الغرب، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية عالية للاشتراك فى العمليات الاستيطانية.

الهجرة الاستيطانية

فى هذا الإطار، يمكننا أن نفهم نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية، فهى حركة تنقل تتم دائمًا داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التى تيسر لهم هذا التنقل، وتتيح لهم فرص الحراك، وتوظفهم كجماعة وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلى قد تم قسرًا، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية)، التى تعاظمت بالتدريج حتى وصلت إلى ذروتها مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، كانت هجرة تلقائية بحتًا عن الفرص الاقتصادية، وتمت فى إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. وهجرة يهود شرق أوربا التى توجهت بأعداد هائلة إلى الولايات المتحدة وكندا، وغيرها من الدول الاستيطانية، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربا (روسيا/ بولندا) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) هى الأخرى هجرة تمت داخل إطار إمبراطورى، إذ انها تمت داخل التشكيل الاستعمارى الغربى وتجربته الاستيطانية فى أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربى، مثل أنشطة شركتى الهند الشرقية والغربية

الهولندية، وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. كما اشتركت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية فى عملية الاستيطان ذاتها. وفى بداية الأمر كان أعضاء الجماعة جزءًا من النشاط الاستيطانى الهولندى، فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل ترينيداد وسورينام والمارتينيك وجمايكا وجزر الباهاما). لكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى. وقد بدأ وصول اليهود إليها من هولندا سنة ١٦٣٩، ثم من إنجلترا سنة ١٦٥٢، فكُفلت لهم جميع الحريات والمزايا. ومُنح اليهود الجنسية الإنجليزية. وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرةً أخرى سنة ١٦٦٧، حاول بعض اليهود الرحيل مع الرعايا البريطانيين، لكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها بوصفهم جماعة استيطانية نافعة. وقد تركز اليهود فيما يسمى يودين سافانا، أى سافانا اليهود، وأسسوا مستوطنة يهودية فى برزدينتس أيلاند سنة ١٦٧٠. وكانت المستوطنة تلك تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهى أول دولة يهودية استيطانية). وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين كانوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب، فأقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق. وقد بلغ عدد سكان المستوطنة ١٠ آلاف نسمة سنة ١٧١٩، وكانت أغلبيتهم من العبيد. وكان العبيد المستجلبون من فريقيا يهربون ويلجأون إلى الأحراج ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من فريقيا الذين كانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين. ثم

بدأت جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين تشن هجمات على المستوطنة فى فترة ١٦٩٢ - ١٧٧٤. وكوَّن المستوطنون البيض مليشيات عسكرية وشددوا الحملات ضد الثوار (تمامًا كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين)، لكن الإرهاق الناتج من الحرب وانتشار الأمراض أديا إلى انتصار السود والسكان الأصليين على الدويلة اليهودية الاستيطانية.

وقد استوطن اليهود أيضًا فى معظم بلاد أمريكا اللاتينية، وخصوصًا فى الأرجنتين التى وطَّن المليونير هيرش فيها آلاف اليهود، والتى كانت تعد أهم تجربة استيطانية زراعية، باستثناء تجربة الدولة الصهيونية فى العصر الحديث.

ويلاحظ أن هذه الأنشطة الاستيطانية كانت تدور إما فى إطار الاستعمار الهولندى أو فى إطار الاستعمار الإسبانى - البرتغالى، والمادة البشرية الأساسية هنا هى يهود السفارد (المارانو). لكن مصدر المادة الاستيطانية الحقيقة كان يهود اليديشية (الأشكناز) من شرق أوربا، الذى كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطانى الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطانى الأنجلو ساكسونى، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب إفريقيا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونج كونج، لكن أغلبيتهم (٨٥٪) اتجهت إلى الولايات المتحدة - أهم التجارب الاستيطانية - ثم إلى إسرائيل التى تلى الولايات المتحدة فى الأهمية.

الاستيطان وواقع اليهود المعاصر

إن الإطار التفسيرى السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية فى العالم (العالم الغربى بالذات) بالتشكيل الاستعمارى الاستيطانى الغربى، ونضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية فى واقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم:

١ – الدياسبورا اليهودية (أى انتشار أعضاء الجماعات اليهودية فى أرجاء العالم). ليس انتشارًا عشوائيًا وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى، وخصوصًا فى جانبه الاستيطانى. فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات ما يسمَّى «التاريخ اليهودى» أو ما يسمَّى «الطبيعة اليهودية»، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربى، ولاسيما الاستعمار الأنجلو ساكسونى.

٢ – لا تشكل إسرائيل استثناء لهذه القاعدة؛ فهى جزء من نمط ومن حركية غربية هى الإمبريالية الغربية التى جعلت العالم مسرحًا لنشاطها، سواء فى أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو جنوب إفريقيا أو فلسطين. فالمشروع الصهيونى هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعمارى الاستيطانى فى الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبريالية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها.

واستيطان اليهود فى فلسطين هو نقل لفائض بشرى غربى إلى بقعة فى آسيا أو إفريقيا، حيث يتم تحويل هذا الفائض وهذه الجماعة الوظيفية التى فَقَدت وظيفتها إلى دولة وظيفية استيطانية تقوم على خدمة مصالح

الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور هى إعادة إنتاج لنمط قديم. ووعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن الصهيونى، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وتوقيع الاتفاق الإستراتيجى معها. كل هذا يبين أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الاستيطانى الأنجلو ساكسونى.

٣ – بل يمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامى قد تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطانى الغربى من خلال مدارس الأليانس، والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الأشكناز إلى العالم العربى، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسمًا، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودى ووطنه ومن ثم استيعابه فى المنظومة الاستيطانية. وفعلاً، حينما أعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إلى إسرائيل.

ويمكن القول بشىء من التبسيط غير المخل إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور فى الوقت الحالى حول مركزين أساسيين هما: شرق أوربا (روسيا/ بولندا) كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة أساسية، وباعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى. وهناك إلى جانب هذا وذاك مراكز طرد وجذب ثانوية: فأما مصادر الطرد الثانوية فهى باقى بلاد شرق أوربا وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وبقايا يهود

الشرق والعالم الإسلامى. وأما مناطق الجذب الثانوية فهناك كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا، وغيرها.

وتمثل إسرائيل الآن نقطة مبهمة، فهى مصدر طرد ، حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق، حيث إنها تحقق حراكًا اجتماعيًا لهم. وهى تمثل أيضًا محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول مباشرةً إلى الولايات المتحدة أو لأولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها.

وإذا استبعدنا سكان المستوطن الصهيونى، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون حاليًا وعلى نحو أساسى، فى الولايات المتحدة وبضعة بلاد أخرى ناطقة بالإنجليزية (كندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا). ولذا، يمكننا القول إن اللغة التى يتحدث أعضاء الجماعات اليهودية بها هى الإنجليزية، لاالعبرية أواليديشية. ويلاحظ أن الجماعات اليهودية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى السابق وأوربا أخذة فى الذوبان، وأن عدد أعضائها فى أمريكا اللاتينية آخذ فى التناقص السريع ومن خلال الحركيات التى تؤدى إلى «موت الشعب اليهودى».

الدياسبورا الدائمة :

يدَّعى الصهاينة أن اليهود شعب قد طُرد من وطنه وشُتت فى أرجاء الأرض بعد أن هدم تيتوس الهيكل. وبالفعل نجد أن عدد يهود العالم خارج فلسطين بُعد هدم الهيكل أقل بكثير من عددهم خارجها، فنؤمن

بشتات اليهود وأنهم نُفوا قسرًا من ديارهم، وأنهم يودون العودة. وأنهم هائمون على وجوههم فى كل بقاع الأرض بسبب غياب الوطن القومى.

ولكن مرة أخرى، لو دققنا النظر، وتناولنا الأرقام بطريقة مختلفة فإن الصورة تختلف تمامًا. فمن المعروف أن عدد اليهود قد وصل إلى ما بين خمسة وثمانية ملايين يهودى فى القرن الأول قبل الميلاد. ويُجمع المؤرخون كافة على أن عدد اليهود فى فلسطين كان لا يشكل سوى ثلث عدد يهود العالم، وذلك قبل أن يهدم تيتوس الهيكل؛ أى أن الفكرة القائلة بأن اليهود مرتبطون ارتباطًا أزليًا بصهيون (فلسطين) وأنهم لا يتركونها إلا قسرًا هى فكرة تتنافى مع واقع التاريخ. فالدياسبورا، أو الشتات اليهودى، مسألة طوعية، وليست مرتبطة بعملية إكراه خارجية. وحالة الدياسبورا حالة دائمة بغض النظر عما كان يحدث فى فلسطين. بل إنه حينما يتجه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، فإن ذلك ينبع من حركيات لا علاقة لها بصهيون. وعلى كل، ها هى الدولة الصهيونية قد فتحت بواباتها داعية يهود العالم إلى المجىء إليها، فهى تعانى أزمة سكانية، غير أن يهود العالم لا يأتون إلا قسرًا أو من خلال الرشوة السخية (كما حدث مع اليهود السوفيت)؛ إذ أن الأغلبية الساحقة تفضل البقاء فى، أو التوجه إلى، الولايات المتحدة (بابل الحديثة)، التى يشار إليها باليديشية بأنها «جولدن مدينا»، أى البلد الذهبى – أرض الميعاد الاستهلاكية التى تفوق فى جاذبيتها أرض الميعاد الصهيونية.

الانعزالية اليهودية

ويدّعى الصهاينة أن اليهود يعيشون فى حالة عزلة دائمة ثم يشيرون إلى بعض الحقائق الصلبة للتدليل على ذلك. ولكن قراءة الواقع والأرقام بطريقة مختلفة يبين كذب ما يقولون. فيهود بابل، على سبيل المثال، اندماجوا فى محيطهم الحضارى وانصهر يهود آشور فى محيطهم. ويمكن أن نشير إلى تأغرق يهود الإسكندرية ونسيانهم لغتهم فى الدولة البطلمية، ولذا كان لابد من ترجمة العهد القديم إلى اليونانية. وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل فى القرن الأول الميلادى إلى ما بين ٥ و ٨ مليون، كان من المفروض أن يصل عددهم إلى خمسين أو ربما مائة مليون فى القرن السادس الميلادى مع بدايات العصور الوسطى فى الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق. لكن يلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية فى ذلك التاريخ كان يتراوح بين مليون واحد ومليونين (تركز أغلبهم فى العالم الإسلامى). وقد ظل عددهم دون تغيير ملحوظ حتى القرن الخامس عشر الميلادى. ولنا أن نلاحظ انخفاض عدد اليهود إلى الخُمس، على الرغم من عدم حدوث هجمات أو عمليات إبادة ضخمة ضدهم أو انتشار أوبئة. ولذا لا يمكن تفسير هذا الانخفاض إلا بأن عملية الاندماج والانصهار والذوبان كانت مستمرة على قدم وساق، أى أن فكرة الانعزالية اليهودية ومقدرة اليهود على مقاومة الاندماج هما مجرد أسطورة تتنافى مع الحقائق التاريخية؛ فأعضاء الجماعات اليهودية- شأنهم شأن جميع الأقليات والجماعات الأخرى- خاضعون لحركيات إنسانية عامة يؤدى بعضها إلى العزل والعزلة، ويؤدى بعضها الآخر إلى الاندماج والانصهار.

طفرتان سكانيتان

من الأساطير الأخرى التى يروِّج لها الصهاينة أن ثمة نزوع أزلى لدى «اليهود» نحو العودة إلى فلسطين، فالإنسان اليهودى – حسب هذا التصور – يحس بالاغتراب إن ابتعد عن وطن أسلافه. ومثل هذا الادعاء يخفى عنا الأسباب السياسية والاجتماعية الحقيقة التى أدت إلى انتشار الفكر الصهيونى والعداء لليهود فى نفس الوقت. والربط بين الاتجاهين قد يبدو أن فيه كثيرا من التناقض، ولكننا لو أمعنا النظر لأكتشفنا أن الصهيونية ليست حركة دفاع عن اليهودية – وإنما هى محاولة لتخليص أوربا من اليهود. ولفهم هذا حق الفهم يجب أن ننظر للبُعد اليموجرافى لظهور الصهيونية.

١ – الطفرة السكانية الأولى:

تقول التقديرات التخمينية : إن تعداد العبرانيين فى عام ١٠٠٠ ق. م بلغ نحو ١,٨٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ فيه. ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سكانها التكنولوجى آنذاك كان منخفضًا، فكيف كان من الممكن أن تمد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين)؟ لعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمى فى الشرق الأدنى القديم جعلها نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة فى البلاد المجاورة، أو كتجار فى حوض البحر المتوسط، أى أن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة «الشتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالى عام ٧٢٠ ق. م . ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشورى والبابلى (٧٢١ ق. م على التوالى) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألف. وهذا الرقم الأخير يُلقى بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التى يهزمونها وحسب، مما يعنى أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم فى مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجَّرين العبرانيين فى البلاد التى هُجِّروا إليها (ومن هنا الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» والتى يجب أن تصبح فى واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين فى فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد حدثت طفرة سكانية إذ بلغ عدد اليهود آنذاك – حسب بعض التقديرات التخمينية – كما أسلفنا – ما بين خمسة وثمانية ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يتجاوز خمسة ملايين. وتعود هذه الطفرة لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية (اليهودية) بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التى وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفريسيين قاموا بحركة تبشيرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوَّروا مفهومًا لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التى جاءت بعدها). كما أن ما يسمَّى الأمن الرومانى «باكس رومانا» الذى ساد المناطق التى كان يعيش فيها أعضاء الجماعات

اليهودية قد وفّر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذى ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعنى ابتعادهم عن المهام القتالية مما يعنى أنه لم يسقط من بينهم قتلى. ويُقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعًا ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضارى ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

٢ - الطفرة السكانية الثانية :

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية ١٦,٧٢٤,٠٠٠ كما هو مبيّن فى الجدول التالى:

السنة	العدد الإجمالى
١٨٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
١٩٠٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٦,٥٠٠,٠٠٠

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسُّن الأحوال الصحية فى العالم الغربى نتيجة الثورة الصناعية، خاصةً بين اليهود نظرًا لأن

مستواهم المعيشى كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافى العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه وأدى إلى إختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات كانت قوية نظرًا لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذى يُشجّع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويُقال إن زواج اليهود فى سن مبكرة كان من أهم العناصر التى ساهمت فى تزايد عددهم. وأخيرًا لم تشهد الأماكن التى تركزت فيها الجماعات اليهودية فى الفترة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٨٤ أى حروب، كما أن كثيرًا من الدول كانت لا تجنّد أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف فى غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون فى شرق أوربا، خاصةً بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث فى روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسى غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدى إلى ظهور جو معادٍ لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التى تطالب بتخليص أوربا من اليهود. وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوربا الوسطى والغربية.

وقد أدى تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة اليهودية فى البلاد التى كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة

وكندا وأمريكا اللاتينية نظرًا لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد الفكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالى) يصلحان كمثالين على ما نقول. فى عام ١٨٤٦ كان عدد يهود فيينا (التى كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) ٣,٧٣٩ يهوديًا فقط لا غير، وصل عددهم إلى ١٥ ألف عام ١٨٥٤، وبلغ ٢٠١,٥١٣ عام ١٩٢٣. ولاشك فى أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون – إن صدقًا أو كذبًا – أن هذه الكتلة هى مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعى، مما ولّد موقفًا معاديًا لليهود ورغبةً فى التخلص منهم باعتبارهم فائضًا بشريًا غير منتج وغير منتمٍ (وهذا هو ذاته الموقف الصهيونى). وفى هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفى النمساوى المندمج تمامًا فى مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيونى. وقد تبنى كثير من اليهود المندمجين فى بلاد وسط أوربا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعًا عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التى كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعور عميق بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج فى مجتمعاتهم الجديدة.

إنجلترا والمسألة الصهيونية

ويمكننا الآن أن نتناول الوضع فى إنجلترا. كان يوجد فى إنجلترا عام١٨٤٥ حوالى ٢٥ ألف يهودى فقط لا غير، وصل عددهم ٢٤٢ ألف

عام ١٩١٠، وكان عدد كبيرٌ من المهاجرين تجارًا وحرفيين صغارا، وأدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن وانتشار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمع الإنجليزى وحسب، وإنما بينهم كوافدين (من الأشكنان) وبين اليهود الأصليين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشعر بأن الوافدين يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعة صغيرة من الممولين الدوليين «ألمان فى أصلهم ويهود فى عنصرهم» حققوا نفوذًا قويًا فى جوهانسبرج (فى جنوب أفريقيا). وقد وصفوهم بأنهم «الحثالة الحقيقية» لأوربا، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس فى الصحافة. ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية فى كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يُلاحَظ أيضًا أن أعدادًا كبيرة أيضًا من يهود إنجلترا، خصوصًا يهود اليديشية، انخرطوا فى صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدَّى إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل من أقصى اليمين والرجعية، وأقصى اليسار والثورية، فى وقت واحد.

فى هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربا. وقدمت حكومة بلفور، الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمَّى «قانون الغرباء» الذى ووُفق عليه

عام١٩٠٥ للحد من الهجرة. وفى هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة فى حىّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيونى الرابع (١٩٠٠) فى لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضى المشروع الصهيونى، توجه هرتزل أساسًا إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيونى كرقعة تلتقى فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفى عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل فى دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية، حيث قدَّم حلاً صهيونيًا مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقا من هذا، عُرض مشروع شرق أفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث فى تاريخ الصهيونية، الذى جاء انتصارًا للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيونى على يهود العالم.